مصادر تاريخ السلطنات الاسلامية في السودان الشرقي

١٤٥٠م - ١٨٢٠م

د. يوسف فضل حسن

شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين تغييرات سياسية واجتماعية كبرى في المنطقة الواقعة جنوب مصر والتي تشمل مملكتي النوبة وعلوة المسيحيتين. ففي القرن الخامس عشر انتهت موجة الهجرات العربية التي تدفقت من الجزيرة العربية ومصر عبر الصحراء الشرقية ومحازية شواطيء النيل ، وامتد أثرها حتى عم كردفان ودارفور وما وراءها. وقد أدى تسرب هذه المجموعات الكبيرة من القبائل العربية الى غلبة الثقافة العربية وانتشار الاسلام.

وقد كانت الحملات العسكرية التي بعثها سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) من أهم العوامل التي أضعفت السياج السياسي لمملكة النوبة المسيحية ومن ثم مهدت الطريق لغلبة المهاجرين العرب الذين استطاع روادهم من بني الكنز ، وهم فرع من ربيعة اختلطت بالنوبيين وصاهرت الأسرة الحاكمة ، اعتلاء عرش النوبة في سنة ١٣٢٣م. وقد تحقق ذلك بفضل نظام الوراثة عن طريق الأم وبتأييد المجموعات النوبية المستعربة والقبائل العربية التي صاحبت الجيوش المملوكية ، فانتقلت السلطة في الأسرة الحاكمة من فرع نوبي مسيحي الى فرع نوبي مستعرب مسلم. وبانتهاء النفوذ السياسي لمملكة النوبة المسيحية انهار الحاجز المنيع الذي

كان يحول دون توغل العرب في حوض وادي النيل الأوسط ومن ثم تدفقت القبائل العربية في مجموعات كبيرة سعيا وراء سهول المراعي ·

وفي ظروف لا نعرف عن تفاصيلها الكثير تمكن العرب من القضاء على مملكة علوة المسيحية في أواسط القرن الخامس عشر وقد بذرت نواة التكوينات القبلية العربية وأرست دعائم العقيدة الاسلامية في الفترة التي تلت سقوط مملكة النوبة المسيحية (١٣١٧م) وقيام سلطنة الفونج الاسلامية وامتداد نفوذها (في حلف مع العبدلاب) حتى شمل معظم وادي النيل الأوسط · والى جانب أهمية هذه الفترة في تاريخ السودان الحديث فانها تعتبر من أكثر الحقب التاريخية غموضا في تاريخ هذه البلاد ·

ولكن ما أن وضحت غلبة الاسلام وشيوع الثقافة العربية وانتشار القبائل العربية واختلاطها بالوطنيين وتمثلهم لأنساب القبائل العربية في أجزاء كبيرة من الجزء الشرقي من بلاد السودان ، حتى ظهرت سلسلة من السلطنات الاسلامية في الفترة الواقعة بين منتصف القرن الخامس عشر ومنتصف القرن السابع عشر ، وأهمها ممالك العبدلاب والفونج وتقلى والمسبعات والفور ·

وكانت أولى هذه الممالك ظهورا هي مملكة العبدلاب التي ورثت مملكتي علوة والمقرة : مهد الحضارات السودانية المعاصرة لعهد الأسرات في مصر ، ومركز الثقل السياسي الحضاري في العهد المسيحي · وقد تعرضت هذه المنطقة الى قدر كبير من المؤثرات العربية حتى غلبت عليها سمات الثقافة العربية كما ازدهرت فيها المؤسسات الدينية والعلمية حتى صارت مصدر اشعاع اسلامي وحضاري لباقي أقاليم السودان · فلما تهيأ لاقليم العبدلاب الزعامة الدينية والثقافية بدأت هجرة العلماء والمتصوفة الى المناطق حديثة العهد بالاسلام حاملين لواء الاسلام والثقافة العربية ·

وعند نهاية القرن الخامس عشر ظهرت قوة سياسية جديدة بزعامة الفونج استطاعت أن تهزم العبدلاب في سنة ١٥٠٤م وتمكنت من بسط نفوذها على معظم وادي النيل الأوسط · وظل العبدلاب يمثلون الشريك الأصغر في اطار سلطنة الفونج الاسلامية حتى سقوطها في سنة ١٨٢١م · وقد اكتنف نشأة هذه الدولة كثير من الغموض ومازال أصل الفونج يمثل واحدة من كبريات المشكلات التاريخية التي تواجه السودانيين · ويرجعهم معظم الباحثين الى أحد هذه الأقاليم : بلاد الحبشة أو بلاد البرنو أو دار الشلك على النيل الأبيض · وتفضل الروايات السودانية بلاد الحبشة بينما يرجع النسابون السودانيون الفونج الى أصل أموي · ونلاحظ أن كلا من بلاد

الحبشة والبرنو قد وقعت تحت مؤثرا تاسلامية قبل قيام سلطنة الفونج الاسلامية ٠

وعلى الأطراف الغربية من بلاد السودان الشرقية نشأت في أواسط القرن السابع عشر سلطنة الفور الاسلامية ، وهي تمثل واحدة من سلسلة السلطنات الاسلامية التي انتشرت في أواسط بلاد السودان ٠ وعند جبل مرة ، موطن الأسرة الحاكمة ، يلتقي عدد من الطرق التجارية ٠ وكانت هذه الطرق مصدر هجرات قبلية ومؤثرات ثقافية أثرت في الكيان السياسي لذلك الموضع النائي ٠ وقبل قيام سلطنة الفور شهد ذلك الاقليم تسلط التنجور والداجو وهجرة القبائل العربية وانتشار بعض مظاهر الثقافة الاسلامية ٠ وتضطرب الروايات عن أصل الأسرة الحاكمة وتميل بعض الأخبار الى ربطهم ببعض العناصر العربية المسلمة الوافدة من وادي النيل ٠٠ ويرجح أن الميلاد الحقيقي لهذه الدولة المسلمة قد اقترن بسليمان سولونج (أي الأحمر أو العربي) ، وظل أحفاده يحكمون دارفور حتى ٢٤ اكتوبر ١٨٧٤ عندما هزمها الزبير باشا رحمة ، ولكنها ما فتئت تعاود الظهور المرة تلو الاخرى ، حتى ضمت الى السودان الانجليزي المصري في عام ١٩١٦ ٠

وفي دارفور كما كان الحال في مملكة الفونج وتقلى وغيرهما من الممالك الصغرى كانت تتواتر ظاهرة قدوم رجل غريب حكيم من منطقة متحضرة ويكون غالبا (فردا أو جماعة) عربيا أو مسلما يتزوج من الأسرة المحلية الحاكمة ثم ينجح في أن يرث أبناؤه الملك ، ويكون ذلك كله منطلقا لقيام دولة اسلامية ذات صلات تجارية واسعة ٠

وشهد اقليم كردفان الواقع بين سلطنتي الفور والفونج نشأة ، دولتين ، صغيرتين هما تقلى والمسبعات ففي منطقة جبال النوبة نجح الفقيه محمد الجعلي ، الوافد من ديار الجعليين ، في جذب قلوب المواطنين بورعه وحسن سلوكه لدرايته ببعض المهارات ، كما تزوج بنت ملك تقلى ومن ثم ورث أبناؤه العرش وذلك في عام ١٥٧٠م ٠

أما المسبعات ، أبناء عمومة سلاطين الفور ، فلم يرثوا تنظيما سياسيا ذا كيان محدد بل سعوا منذ أواخر القرن السابع عشر وخلال القرن الثامن عشر لتحقيق مطامع آسيوية لانشاء دولة مستقلة ٠ وقد قارب المسبعات النجاح في عهد السلطان هاشم المسبعاوي ، ولكن مطامع الفور لم تترك لهم فرصة للانفراد بالسلطة في ذلك الاقليم الاستراتيجي ٠

استعرضنا خلال هذه المقدمة بعض السمات الرئيسية لتاريخ الممالك الاسلامية في بلاد السودان الشرقية ، وقد ظهر فيها جليا دور الاسلام والثقافة العربية في نشأة هذه الممالك · كما أن اعتناق الأغلبية العظمى من شعوب هذه الممالك للعقيدة الاسلامية وتمثلهم للثقافة العربية أدى الى خلق نوع من التماسك والترابط بين شعوبها ، كما أسهم في وضع اللبنات الأولى لوحدة وطنية وسياسية أكثر شمولا ·

ومع وجود هذه المقومات الأساسية فان الصلة بين هذه السلطنات كانت ضئيلة ، ولعل سبب ذلك سعة رقعة هذا الاقليم وصعوبة المواصلات في داخل البلاد والى الخارج · مما جعل هذا الاقليم يعيش في عزلة ثقافية كبرى · وحقيقة الأمر أن هذه الدويلات ظلت حبيسة محليتها ولم تتأثر كثيرا بأي مؤثرات خارجية بعد غلبة الثقافة العربية الاسلامية ، الا بعد الفتح التركي المصري في عام ١٨٢١م · وبهذا الغزو ، في رأيي ، تؤرخ بداية العصر الحديث في سودان وادي النيل ، ولقد أدت هذه العزلة الثقافية مضافا اليها تفشي الأمية وتخلف البلاد النسبي الى ضآلة الانتاج الفكري المحلي وضحالته عموما · وقد أثر هذا كله على درجة « الوعي التاريخي » ومن ثم قلت المؤلفات التاريخية السودانية وغير السودانية ·

وازاء هذا الشح في المصادر التاريخية فليس غريبا أن تظل كثير من التساؤلات دون اجابة · وسأحاول في هذه الدراسة تخطي النظرة التقليدية التي تهتم بدراسة المصادر الأولية والتي تنحصر عادة في محيط الوثائق الديوانية الرسمية وما شابهها · فان قلة أو ندرة ما سطر عن هذه الممالك تجعلنا نهتم بكل ما كتب ثم نخضعه لدراسة علمية دقيقة بل لابد أن يلجأ الباحث لقلب الأمة أو مكنوزها من التراث يستشف منه بعض المعلومات التاريخية التي يتوارثها الناس على هيئة قصص أو أشعار أو روايات شفوية · وستشمل هذه الدراسة نماذج من المخطوطات ، ووثائق تمليك الأرض ، كتب التاريخ المعاصر وأدب الرحلات وأشجار النسب والروايات الشفوية ·

وسأقسم ملاحظاتي الى أربعة أقسام : أولا الهجرة العربية وأثرها على السودان الشرقي ، ثانيا ممالك العبدلاب والفونج وتقلي ، ثالثا سلطنتا الفور والمسبعات ، رابعا أهمية الروايات الشفوية ·

وبما أن كثيرا من هذه المصادر تتعرض لأكثر من مملكة في وقت واحد فستكون دراستي متداخلة وربما اكتفيت بالاشارة لها في موضع واحد ، واعتذر عما يحدثه هذا من خلل في التقسيم الجغرافي والتسلسل التاريخي ·

الباب الأول

الهجرة العربية وأثرها

هنالك مجموعتان من المؤلفات التي تناولت موضوع الهجرة العربية الى السودان وأثرها . الأولى هي المصادر العربية المعاصرة والأخرى هي أوراق النسب المنتشرة عند كثير من السودانيين . والمصادر العربية تعكس العلاقات بين بلاد النوبة وما وراءها والامبراطورية الاسلامية في الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والخامس عشر . ومع أن ما كتب في أواخر هذه الفترة يمس بلاد النوبة عرضيا ، الا أن جملة ما كتب من أخبار وسير يكون خلفية تاريخية لا غنى عنها لأي باحث في تاريخ الممالك الاسلامية في السودان الشرقي .

المصادر العربية المعاصرة :

ومع هذه الأهمية القصوى للمصادر العربية فان ما ورد فيها مقتضب في جملته ، بل لا أبالغ اذ قلت أنه لم يفرد واحد من المؤلفين العرب كتابا متكاملا عن ذلك الاقليم الشاسع سوى المقتطفات التي وردت في كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي (١) من كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل الذي ألفه عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني (٩٩٦) الداعية الفاطمي الذي زار بلاد النوبة وعلوة وسجل فيه ما شاهده أو سمعه . ولكن الكتاب مفقود ولم يبق منه الا ما أورده المقريزي (١) .

وتضم المصادر التي عالجت موضوع الهجرة العربية ما يزيد عن الستين مصنفا مطبوعا ومخطوطا . وقد جمع الاستاذ الدكتور مصطفى محمد مسعد مقتطفات من نحو أربعين كتابا أسماها المكتبة السودانية العربية (٣) . وقد فرغ الأب الدكتور جيوفاني فانتيني من دراسة مماثلة جمع فيها كل ما كتبه العرب عن السودان الشرقي في العهد المسيحي قبل نهاية القرن الخامس عشر . وتحوي هذه الدراسة هوامش مستفيضة وترجمة للغة الانجليزية (٤) ، وقد أعد كاتب هذا المقال دراسة تحليلية عن أهم هذه الكتب عند دراسته لدخول العرب في السودان (٥) .

ويكفي أن نذكر طرفا من هذه المصادر وأهمها كتب التاريخ مثل فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (٨٧١) وفتوح البلدان لأحمد بن يحيى

البلاذري (ت ٨٩٢) ، وتاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري (ت ٩٣٢) وتاريخ ابن واضح لليعقوبي (ت٨٩٧) وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون (ت١٤٠٥) وكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (ت١٤٤٢) ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبي المحاسن بن تغري بردي (ت١٤٦٩) · ومن المصادر الهامة كتب التراجم مثل تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع (عاش في القرن العاشر) · ومن كتب السيرة تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور والروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر لابن عبد الظاهر (ت١٢٩٢) ومن دوائر المعارف نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (ت١٣٣٢) ، مسالك الابصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري (ت١٣٤٨) ، وصبح الأعشى في صناعة الانشاء للقلقشندي (ت١٤١٨) · كما يمثل أدب الرحلات مصدرا هاما لدراسة تاريخ هذا الاقليم ، ولعل أهم هذه الكتب كتاب ابن سليم الأسواني الذي نوهنا به من قبل ، وهو مزيج من التاريخ والجغرافيا ، وسفر نامة للرحالة الفارسي ناصري خسرو (ت١٠٨٨) ورحلة ابن جبير (ت١٢١٧) للرحالة الأندلسي الذي زار ميناء عيذاب ، كما أفرد ابن بطوطة (ت١٣٧٧) جزءا من رحلته تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لميناء سواكن والمنطقة الساحلية · ومن كتب الجغرافيين الذين أفردوا جزءا للسودان الشرقي كتاب الادريسي (ت١١٦٥) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس وكتاب ابن حوقل (ت٩٥٦) صورة الأرض ، والمسعودي (ت٩٥٦) مروج الذهب ومعادن الجوهر · ومن الدراسات الفريدة التي تبحث في أصول الرقيق ومميزات كل فئة واستعدادها رسالة في شرى الرقيق وتقليب العبيد لابن بطلان (ت ١٠٦٣) ، ومن الدراسات الهامة التي تلقي ضوءا على تاريخ القبائل العربية قبل الهجرة الى السودان ومواطن اقامتها والتي تساعد في مراجعة ما ورد على لسان النسابين السودانيين عن أصولهم العربية كتاب « البيان والاعراب عما في أرض مصر من الأعراب » للمقريزي ، ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب . للقلقشندي ·

ومع وجود بعض المصادر السودانية الخاصة بالمخلفات الأثرية فان دراسة تاريخ العهد المسيحي وبداية توغل النفوذ الاسلامي تعتمد اعتمادا أساسيا على المصادر العربية التي استعرضنا جانبا منها · ولكن مما يؤسف له أن اهتمام الكتاب المسلمين بالسودان الشرقي قد انتهى بانقطاع العلائق السياسية التي كانت تربط مصر ببلاد النوبة · وبدأت فترة جديدة امتدت حتى أواسط القرن التاسع عشر لم يفرد فيها مصنف واحد عن هذا الاقليم الشاسع الا عندما صدر كتاب « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » لمحمد بن عمر التونسي (ت١٨٥٧) · وازاء هذا الضمور في المصادر العربية

فان المصادر الوطنية صارت تمثل المرتكز الأساسي لدراسة تاريخ هذا الاقليم ، مضافا اليها ما خلفه الرحالة الاوربيون الذين أخذوا مكان وصفائهم العرب والمسلمين ، وقد ازداد عددهم منذ أوائل القرن السادس عشر (٦) .

أشجار النسب :

هذه مجموعة من كتيبات النسب وهي في الأغلب عبارة عن قوائم تؤرخ لنسب أسرة أو قبيلة أبا عن جد حتى تبلغ النبي صلى الله عليه وسلم أو عمه العباس أو بعض أجلة الصحابة ، وقد تمتد كما هو الحال عند سائر العرب الى قحطان أو عدنان . ويهتم السودانيون ، خاصة العرب منهم ، أو من تمثلوا الثقافة العربية تمثلا كاملا ، بهذه الأنساب اذ أنها تقرر ، كما يعتقد البعض منهم ، صراحة نسبهم . أو قل أنها تمنحهم الاطمئنان على عراقة أصولهم خشية أن يعدوا في زمرة من اختلطوا بهم في الموطن الجديد . وهو سلوك يدل على الشعور بالتميز عند هؤلاء العرب . ومن تمثلوا ثقافتهم ، دون غيرهم . ومن ثم تعكس أشجار النسب في الموطن الجديد تمييزا ثقافيا وليس عرقيا كما يظن من ارتضوها لأنفسهم . فأشجار النسب تهتم بذكر الآباء دون الأمهات وفيها يهمل دور المجموعات الوطنية في التلاحم . وبكلمات أخرى فأشجار النسب ترمز الى تميز ثقافي وليس عرقيا ، وربما كان التمسك بها تعبيرا لغلبة الثقافة العربية التي انتظمت السودان الشرقي في أواخر القرن السادس عشر .

وأشجار النسب لا تخلو من أن تكون سجلا جافا لأباء أسرة معينة تتوارثه خلفا عن سلف ، وبعضها يحوي بعض القرائن التي ترجعها الى القرن السادس عشر . ولكن الراجح أن معظم ما وصلنا من مخطوطات يرجع الى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وتختلف هذه الكتيبات طولا وقصرا وتشمل أحيانا بعض الروايات التي يأتي ذكرها عرضا ، كما تشمل بعض الأخبار عن قريش وغيرها من القبائل العربية ولكن ما فيها من أخبار يفتقد الدقة . ويزعم معظم أصحاب هذه الكتيبات أنهم قد نقلوها عن كتاب الأنساب للامام السمرقندي ، وهو شخصية شبه أسطورية ربما عاشت عند نشأة سلطنة الفونج . ولا شك أن معرفته بالأنساب العربية عامة وصلات القبائل العربية والمجموعات المستعربة بعضها ببعض مكنت هذا المؤلف أن يصير حجة يتكيء عليها القاصي والداني في سائر البلاد .

وقد جمع السير هارولد ماكمايل ، السكرتير الاداري لحكومة السودان قدرا كبيرا من أوراق النسب هذه خلال العقدين الأولين من هذا القرن وقام بدراستهما واعداد ترجمة موجزة لها في كتابيه :

(ا) The Tribes of Northern and Central Kordofan, Cambridge 1912;

(ب) A History of the Arabs in the Sudan, Cambridge, 1922.

وهو مكون من جزئين ـ ويعد الكتاب الثاني حجة في تاريخ القبائل العربية في السودان · وقام كاتب هذه السطور بدراسة « الوثائق » التي جمعها ماكمايل بعد أن قارنها ببعض المؤلفات العربية المعاصرة ونشرها في كتابه The Arabs and the Sudan, Khartoum, 1974 ومن شاء الاستزادة في هذا الموضوع فليرجع الى تلك المؤلفات ، وكذلك المقال الذي كتبه عن مصادر تاريخ السودان في فترة ما قبل المهدية ، في كتابه « دراسات في تاريخ السودان » ، الجزء الأول ، الخرطوم ، ١٩٧٥ ، ١٠٩ ـ ١٤٥ · ومع أنه يصعب أن نصدر حكما عاما على القيمة التاريخية لسائر أوراق النسب الا أنه يمكننا الاستفادة منها لأخذ بيانات تاريخية حتى ولو كانت بعض مزاعمها الظاهرة لا أساس لها ، وفي الوقت نفسه يجب أن نأخذ هذه البيانات التاريخية في شيء من الحذر وأن نخضعها لدراسة نقدية وتحليلية · وحقيقة الأمر أن الأخبار التي ترد في كتب النسابين السودانيين تلقي ضوءا على بعض مظاهر استكمال الاستعراب وتوضح طبيعة العلائق التي تربط بين الوافدين والوطنيين ، ولهذا تعتبر مصدرا هاما لتاريخ السودان القبلي وكيانه الوجداني والنفسي ·

ومن الطريف أن نهج الامام السمرقندي في التاليف مازال مثلا يحتذى عند كثير من الكتاب الذين يؤرخون لسائر القبائل العربية في السودان او بعضا منها · ومع أن كثيرا مما ورد في هذه المؤلفات فيه تكرار لما جاء في كتب النسابين السابقين ، الا أنها تشمل بعض التفاصيل أو الاضافات التي نتجت من اتساع رقعة الأرض التي تحتلها القبيلة أو ازدياد عدد من انضوى تحت لوائها ، معتمدين في ذلك كله على الأخبار الشفوية التي ينقلونها خلفا عن سلف · مثال ذلك كتاب « تاج الزمان في تاريخ عرب السودان » وهو موسوعة كبيرة أعدها الشريف يوسف الهندي ، والكتاب مازال مخطوطا · وكتاب سهم العروبة ، حول التاريخ وقبائل العرب بالسودان الخرطوم ، ١٩٤٩ ، الجزء الأول ، للشيخ عثمان حمد الله · وله مخطوطة أكثر تفصيلا في نفس الموضوع · وكتب الشيخ عبد الوهاب الهاشمي دراسة تفصيلية عن تاريخ قبيلة العمراب مبينا صلتها بالجعليين ، وموضحا فروعها الصغيرة ، ونشر الكتاب بالخرطوم حديثا · وللشيخ الفحل الفكي الطاهر ، دراسة أكثر تفصيلا عن « تاريخ وأصول العرب بالسودان » ، الخرطوم ، ١٩٧١ · وفي هذا الكتاب يسرد المؤلف أنساب القبائل العربية

بالسودان وأصولها . وربما تكمن أهمية الكتاب في أنه يحتوي على بعض الأخبار القيمة عن تاريخ تلك القبائل كان المؤلف قد استقاها من بعض الوثائق التي ضاعت أصولها . خاصة مما كان يحفظ في بلاط ملوك الجعليين بشندي . ويتفق المؤلف ، وهو لا يقرأ الفرنسية ، مع بعض ما أورده الكاتب الفرنسي دى كادلافين عن ملوك الجعليين في بارا عندما تعرض لهذا الموضوع في نحو عام ١٨٣٦ .

ولقد ابتدرت شعبة أبحاث السودان في ١٩٦٥ (والتي يضم مناشطها حاليا معهد الدراسات الافريقية والآسيوية) بجامعة الخرطوم برنامجا علميا لرصد الروايات الشفوية من التاريخ والقصص والشعر والأنساب التي مازالت متوارثة عند الأفراد والمجموعات ، بقصد اعدادها للنشر حفاظا لها من الضياع . وقد نشرت هذه الذخيرة من الروايات في سلسلة « التراث الشعبي » ، وصدر منها عن الرباطاب والفادنية والحمر والحمران ، والمسبعات والشايقية والمناصير والعبدلاب .

الباب الثاني

مصادر تاريخ ممالك العبدلاب والفونج وتقلي

بما أن تاريخ مملكتي العبدلاب والفونج متداخل فساقرن ملاحظاتي عنهما ، وهذا الاجراء سيشمل أيضا مملكة تقلي وذلك لقربها من وادي النيل ولكثرة صلاتها السياسية والتجارية به .

المصادر الوطنية :

يمكن تقسيم المصادر الوطنية الخطية غير أوراق النسبة الى نوعين هما الكتب ووثائق عقود تمليك الأرض . ونلاحظ أن معظم ما كتب عن هذه الممالك قد تم انجازه في أواخر عهد الفونج وخلال القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين .

الكتب :

ولعل أقدم هذه المخطوطات هو « تاريخ الملوك الفونج ببلد سنار » ، وهي وثيقة صغيرة مكونة من ست صفحات أحضرها الرحالة الاسكتلندي

جيمز بروس من سنار في سنة ١٧٧٢ ، وتحفظ حاليا بمكتبة بودليان باكسفورد . وتحتوي الصفحة الأولى منها غير البسيطة على عبارة « تاريخ ملوك الدولة الفنجية بمدينة سنار المحروسة المحمية بعد المملكة النوبية . أول من نزل لسنار السلطان عمارة بن عدلان عام تسع مائة وعشر سنين من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم » ثم تعطى نبذة مقتضبة عن تسلسل ملوك الفونج . وربما كان أحمد سيد القوم ، رئيس شئون القصر في سنار في ذلك العهد ، هو مؤلف هذه الوريقات .

وتعتبر « مخطوطة كاتب الشونة » أو « تاريخ ملوك سنار » امتدادا وتطويرا لوريقات بروس . وقد وصلتنا نسخ عديدة من هذا المخطوط الهام تختلف اختلافا واضحا في حجمها وفي ما تؤرخ له وفي أسلوبها . والسبب في ذلك أن الكتاب قد لمسه أكثر من قلم بالتأليف والتهذيب والاضافة . والراجح أن النواة الأولى لهذا الكتاب القيم من وضع الشيخ أحمد بن الحاج أبو علي كاتب الشونة (١٧٨٥ ـ بعد عام ١٨٣٨) وهو سوداني . وكان يعمل موظفا بالادارة التركية المصرية في الخرطوم . ويعالج الكتاب موضوعين رئيسيين : تاريخ سلطنة الفونج ثم العهد التركي المصري حتى عام ١٨٣٨ . وجاء في مقدمة الكتاب « فاني رأيت تواريخ للأقدمين في عدد سنى الملوك السابقين وأحببت أن أجمع الى ذلك شيئا من ابتداء عمارة سنار المحروسة .. وأذكر ما كان فيها ومن ملوكها وعلى ما سمعته الاذن وشوهد في آخر ملكهم الأمين » . ويعتبر هذا الكتاب مصدرا هاما لتاريخ مملكتي العبدلاب والفونج (وتقل الى حد ما) . اذ يضم قوائم ملوكهم بالاضافة الى قدر يسير من التعليقات . ويمتاز الجزء الأخير منه بتفصيل ما اجتاح دولة الفونج من اضطرابات حادة في آخر عهدها .

وقد تعهد هذا الكتاب ثلاثة من العلماء ، الذين عاشوا في كنف الحكم التركي المصري بالسودان بالتهذيب والتنقيح والاضافة ، ولكن جوهر اضافتهم لم يمس الفترة التي نحن بصددها . وقد اهتم الشيخ الزبير بن عبد القادر ود الزين بتهذيب أسلوب المؤلف كما أضاف اليه مادة جديدة تشمل الفترة المنتهية في عام ١٨٦٣ . وأسهم الشيخ ابراهيم بن عبد الدافع بشيء من الحذف والاضافة وامتدت مادة الكتاب حتى عام ١٨٧١ على يد الشيخ الأمين الضرير .

وللكتاب طبعتان محققتان أولاهما للبروفسير مكي شبيكة وقد نشرت بعنوان « تاريخ ملوك سنار » الخرطوم ، ١٩٤٧ ، والثانية للأستاذ الشاعر بصيلي عبد الجليل بعنوان « مخطوطة كاتب الشونة ، أو تاريخ السلطنة

السنارية » والادارة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ . ويعمل الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم وكاتب هذه السطور على نشر تحقيق جديد يشمل النسخ الخطية التي اكتشفت حديثا .

أما كتاب « الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان » ، لمحمدين النور ضيف الله (١٧٢٨ ـ ١٨٠٩) ، المشهور بود (أي ولد) ضيف الله ، فيمثل صرحا هاما في تاريخ الممالك الثلاث . فقد نشأ المؤلف بحلفاية الملوك مقر ملوك العبدلاب . وهنالك درس العلوم الدينية وتأثر بالجو الصوفي الغالب على البلاد في ذلك الحين . ويذكر ود ضيف الله أنه الف هذا الكتاب استجابة لرجاء من أصدقائه : « بأن أورخ لهم ملك السودان ، وأذكر مناقب أوليائها الأعيان . فاجبت سؤالهم ... مع انه لم يكن لأسلافنا وأسلافهم وضع في هذا الشأن الا أن أخبارهم متواترة عند الخاص والعام ، منها ما بلغ حد التواتر عندهم فأحببت أن أذكر ما تواتر واشتهر » . والكتاب يشمل ترجمات ذاتية لسير سبعين ومائتين من العلماء والأولياء ويحتوي على معلومات من الحياة السياسية والاجتماعية والدينية . ويضم بين دفتيه العديد من الحكايات الشعبية ويزخر بمادة لغوية لا غنى عنها لأي باحث في اللغة العامية السودانية كما يشمل نماذج من شعر المديح والرثاء . وقد جمع المؤلف كل هذه دون نقد أو تعليق ولكنه اختار منها ما اشتهر وتواتر في ذلك العهد . واعتمد المؤلف في جميع هذه المادة على ثلاثة روافد أولها ما تواتر من الأخبار أي الروايات الشفوية المتداولة بين الناس أو خلاصة الموروث الشعبي الذي يمثل ذاكرة الأمة وتناقلته الأجيال كابرا عن كابر . وثانيها ما ورد في بعض المصادر الخطية التي ضاع أصلها مثل الاجازات والتاوى والأحكام الشرعية وما نقله من بعض المؤلفات . وثالثها ما رواه كشاهد عيان . وقد كتب الكاتب بلغة مبسطة يمزج فيها المؤلف بين الفصحى والعامية السودانية .

وقد وصلنا هذا الكتاب في صورة بضع مخطوطات ليس بينها خلاف جوهري ، وقد نشرت ثلاث مرات خلال هذا القرن آخرها وربما أقربها لهيئة الكتاب الاولى الطبعة التي نشرتها جامعة الخرطوم ، في عام ١٩٧١ (٧) .

قبل بضع سنوات عثرت على مخطوطتين متشابهتين عن تاريخ العبدلاب من تاليف عبد الله بن الارباب بن شارو سليل ملوك العبدلاب . وترجع أقدم المخطوطتين الى سنة ١٩١٥ وعنوانها « مقدمة تاريخ ملوك العبدلاب المقيمين بمدينة قرى المحروسة ونواحيها » . وتتكون هذه المخطوطة من خمس وثلاثين صفحة . وذكر المؤلف أنه كتبها بناء على توجيه من لا يسعه مخالفته ـ ولعله

السيد علي الميرغني : واعتمد في تأليفها على كلمات سمعها من الكبار المتقدمين . أما المخطوطة الثانية « واضح البيان في ملوك العرب بالسودان » ، فلا يعرف تاريخ تأليفها . وتتكون من احدى وعشرين صفحة . وذكر المؤلف أنه استفاد كثيرا من روايات والده البالغ من العمر تسعين سنة ، وكان والده هذا على صلة وثيقة بالعالم ابراهيم بن الشيخ عبد الدافع أحد منقحي مخطوطة كاتب الشونة . والمخطوطة الأخيرة تكاد تكون صورة طبق الأصل للروايات التي نشرها المستر بن بالانجليزية في سنة ١٩٣٤ . وهاتان المخطوطتان لم تحققا بعد تحقيقا علميا (٨) . وتشمل المخطوطتان على سجل كامل لملوك العبدلاب ومنجزاتهم وصلاتهم بملوك الفونج . ورغم أن هاتين المخطوطتين تعتمدان اعتمادا كليا على الروايات الشفوية المتواترة عند أبناء تلك القبيلة في أول هذا القرن ، فان ما جمعته شعبة أبحاث السودان حديثا لا يختلف كثيرا عن مادة هاتين المخطوطتين . ولا شك أن هذه المادة تحتاج الى غربلة ودراسة تحليلية (٩) .

وثائق تمليك الأرض :

وتمثل وثائق تمليك الأرض مصدرا من الوثائق هاما ، بل تمثل مرتكزا أساسيا لدراسة تاريخ الممالك الاسلامية في السودان الشرقي . فهي فوق أنها توضح العلاقات القائمة حول تمليك الأرض بين الدولة والمواطنين ، خاصة رجال الدين ، فانها تساعد في شرح كثير مما يرد في المصادر الخطية الاخرى . ويمكن عن طريقها المراجعة والضبط لما تحويه تلك المصادر من أنباء . ومعظم هذه الوثائق قد صدرت عن سلاطين الفونج والعبدلاب وعن دولتهم ونظامهم الحاكم . وكان أول من نبه الى قيمتها التاريخية الدكتور أ.ج أركل في دراسة له عن أصل الفونج نشرت سنة ١٩٣٢ (١٠) ثم تبعه الأستاذ الصادق النور الذي نشر خمسة عقود تمليك في مجلة كوش في عام ١٩٥٦ . وفي سنة ١٩٦٧ ابتدر الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم دراسة رائدة في فحص مجموعة مكونة من ست وثلاثين وثيقة . وكل هذه الوثائق محررة باللغة العربية ويرجع تاريخها الى الفترة الواقعة بين سنة ١٧٢٩ و ١٨٢٠ . وقد بين الدكتور أبو سليم طبيعة هذه الوثائق واهميتها ، كما تعرض لتعريف الوظائف والألقاب الواردة فيها . وتكشف الوثائق عن الأساليب الديوانية التي كانت سائدة في الحكم ، وتبين طريقة فض المنازعات وطريقة اقطاع الأرض للأسر الدينية وللأفراد . ومع أن كثيرا من الوثائق مازالت في طي الكتمان ، الا أن دار الوثائق المركزية بالخرطوم قد كشفت النقاب عن كثير من هذه العقود في المديرية الشمالية ومديرية النيل ، وكردفان ودارفور ، ومازالت توالي جهودها (١٣) .

هذه باختصار المصادر الخطية الوطنية وأعتقد أنه يمكننا الكشف عن بعض المخطوطات ذات القيمة التاريخية اذا واصلنا البحث عند الأسر الدينية . كما أن هناك مجموعة من المؤلفات الدينية التي لم أتعرض اليها ولكنها دون شك تلقى بعض الضوء على الحالة الدينية للبلاد آنذاك · ولا شك أنه في غياب كمية جوهرية من المصادر الوطنية المكتوبة عن السودان الشرقي فلابد من الاعتماد على الروايات الشفوية وهذه نقطة آمل أن أعود اليها في آخر هذه الدراسة ·

أدب الرحلات :

تشكل تقارير الزوار والرحالين الذين زاروا السودان الشرقي ابان هذه الفترة مصدرا من المصادر الهامة التي يمكن أن تكمل بعض الجوانب · التي خلفتها قلة المصادر الوطنية · ونلاحظ أن معظم هؤلاء الزوار من أصل أوربي وقد جاءوا للسودان ، كغيره من الأقطار الافريقية في اطار عملية الاستكشاف التي بدأتها أوربا ولمعرفة خصائصه الجغرافية · وبغية التمهيد لفتح الطريق للحبشة المسيحية ·

وكان المقامر اليهودي داود روبيني أول من زار سلطنة الفونج ، وكان في طريقه من اليمن الى أوروبا · ومكث في سنار قرابة السنة بين عامي ١٥٢٢ و ١٥٢٣ · ومع أن بعض الباحثين يتشككون في صدق ما كتبه روبيني ، الا أن ما كتبه ذو أهمية فريدة ، لما حوى من معلومات تفصيلية عن الفونج عند نشأة دولتهم · وقد نشرت رحلة داود روبيني مترجمة الى الانجليزية في كتابين (١٤) ·

وربما كان الرحالة التركي أوليا شلبي ثاني من زار السودان في عام ١٦٧٢ وقد طاف أوليا شلبي عددا من الأقطار في شمال أوربا وآسيا وافريقية · وخلف مادة كبيرة ضمنها عشرة مجلدات وقد كتب في الجزء العاشر (١٥) أخبار رحلاته في مصر والسودان والحبشة ، وبما أن كتاباته لا تخلو من شيء من المبالغة والاغراق فان بعض الباحثين يميلون الى أن ما كتبه عن السودان ربما أستقاه عن التجار الذين كانوا يترددون على تلك البلاد · ولم تحقق أو تنشر مادة الجزء العاشر نشرا علميا ، كما أنها لم تترجم بعد للغة العربية · وقد ترجم الجزء الخاص بالسودان الى اللغة الايطالية (١٦) · وقد أخبرني البروفسير رتشارد هل قبل بضعة أعوام أن ما نشر من هذه الرحلات في سنة ١٩٣٨ بحروف لاتينية لا يطابق محتويات المخطوط التي كان قد اطلع عليها وكتبت بالتركية العثمانية (١٧) · وازاء هذه الاعتبارات فلابد من أخذ محتويات رحلة أوليا شلبي بشيء من الحذر ·

وشهد مطلع القرن الثامن عشر قدوم جماعة من المبشرين الذين ينتمون الى طائفتي اليسوعيين والفرنسيسكان الذين اتخذوا من مدينة سنار نقطة انطلاق لنشاطهم التبشيري في بلاد الحبشة المسيحية التي كانوا يؤملون أن يصير أهلها من أتباع الكنيسة الكاثوليكية في روما . وقد خلف هؤلاء المبشرون مذكرات وتقارير قيمة ، كما بعثوا ببعض الرسائل الى ذويهم وقد وجدت هذه الخطابات طريقها الى المكتبات الايطالية . وحوت هذه التقارير مادة متنوعة عن البلاد وأحوالها السياسية والاجتماعية . وفي كتاب تاريخ مملكة الفونج السنارية أستعرض كرفورد عددا من مؤلفات هؤلاء القساوسة (١٨) . وقد اطلعت مؤخرا على مخطوطتين لدراستين لهذا الموضوع في شيء من التفصيل للأب الدكتور جيوفاني فانتيني (١٩) .

ويحتل كتاب شارلز بونسيه مركزا هاما في هذه القائمة . ففي عام ١٦٩٨ وصل مدينة مشو التي تقع على الحدود الشمالية لسلطنة الفونج ومنها تابع النيل حتى بلغ مدينة سنار التي أقام فيها ردحا من الزمن وقد ترك وصفا دقيقا لكل ما شهده (٢٠) . وقد اتسمت أوصافه بالدقة .

وكان ثيودور كرمب ثاني القساوسة الذين خلفوا وصفا لرحلتهم ، وقد أقام كرمب زمنا طويلا في بلاط ملوك العبدلاب وسلاطين الفونج ورغم كبر حجم ما خلفه من وصف الا أنه يفتقد العمق وقوة الملاحظة . ومن المصادر الهامة في هذا المجال تاريخ الارسالية الفرنسيسكانية في الصعيد والفونج والحبشة ١٦٨٦ ـ ١٧٢٠ للأب يعقوب دي البانو الذي نشره الأب جبرائيل جامبراديني (٢١) . وكذلك سلسلة أثيوبيا الفرنسيسكانية الجزء الأول والثاني (٢٢) .

ومن أهم الرحالة الأوربيين الذين زاروا مملكة الفونج المكتشف الاسكتلندي جيمس بروس الذي قضى معظم عام ١٧٦٢ في سنار عند عودته من الحبشة . وقد تعرف فيها بروس على طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية ، واستقى كثيرا من الأخبار عن تاريخ تلك الدولة وضمنها في كتاب رحلاته (٢٤) . الا أن ما ذكره بروس في ذلك الكتاب رغم غزارته وطرافته فانه يحتوي على الكثير من عنصر المبالغة وربما روح المغامرة والبطولة التي يضفيها بروس على كل منجزاته في تلك الرحلة التي انتهت باكتشاف منابع النيل الأزرق الذي ظل يفيض بالماء الوفير منذ بدء الخليقة وقد خط بروس مذكرة يومية سجل فيها معظم ما شاهده وسمعه ، فلما عاد الى موطنه كتب تفاصيل رحلاته من هذه المذكرات . وذكر الاسكندر مري مؤلف سيرة حياة بروس في خطاب لأحد معارفه « أن كتاب بروس بالرغم من أنه قيم وعجيب

فقد كتب باهمال » · ويذكر مري أنه بعد اضطلاعه على مذكرات بروس وجد فيها بعض الروايات التي لا تمت للحقيقة بصلة (٢٥) وقال عنه Benjamin Latrobe وهو ممن عرفوه عن قرب : « لم يكن يوحي بالدقة ناهيك بالوضوح وكان عفويا فيما يختص بالتفاصيل ولا شك أن مذكرات بروس رغم تناقضها أحيانا فانها تمثل مصدرا هاما لأصل الفونج (٢٦) ·

وعلى نقيض بروس نجد الرحالة النمساوي جون لويس بروكهارت الذي زار السودان حتى بلغ مدينة شندي وميناء سواكن خلال عامي ١٣ _ ١٨١٤ منتدبا من الجمعية الافريقية بلندن للكشف عن داخل أفريقيا · وكان لويس بروكهارت هذا يجيد العربية ، يقظ العقل ، قوي الملاحظة ، دقيق العبارة ، أمينا وصبورا · وقد تركت كل هذه الصفات آثارها على رحلاته في بلاد النوبة (٢٧) · اذ أنه وصف طبيعة البلاد وأعطى صورة دقيقة للحياة الاجتماعية والاقتصادية خاصة تجارة الرقيق في العقد الثاني من القرن التاسع عشر ·

وليس هناك نهاية لقائمة مؤلفات الرحالين الأوروبيين الذين زاروا السودان وكتبوا عنه خاصة بعد الفتح التركي المصري وتعرضوا للحديث عن تاريخ تلك البلاد ، ولكن أهميتها تتضاءل كلما ابتعدنا عن عهد الفونج · ونجد أسماء هذه الكتب في كتاب كروفورد (٢٨) وفي كتاب الممالك السودانية (٢٩) · وفي طبقات ود ضيف الله المحقق حديثا (٣٠) · وعلى رأس هذه المجموعة كتب كايو (٣١) ولينانت دي بلفوند (٣٢) ودي كادلافين ودي بيفوري الذي آمل أن أعلق عليه عند حديثي عن المسبعات (٣٣) ·

ومن المصادر المفيدة مجموعة من الكتابات تحدثت عن الطرق التي تربط أثيوبيا بالبحر الأحمر (٣٤) · وتشمل هذه بعض المؤلفات البرتغالية التي كتبت عن الحبشة في تاريخ معاصر لمطلع هذه الدراسة · وللمزيد من المعلومات عن العلاقات السودانية الاثيوبية والمصادر الاثيوبية في هذا الموضوع أنظر مقال مرد ولد أرقى وسيرقور هيل سلاسي (٣٥) · ويشتمل كتاب فانسليب عن مصر في القرن السابع على بعض الحقائق عن العلائق بين اقليمي وادي النيل (٣٦) ·

وأثبتت دراسة البروفسير جنكيز أورهونلو عن « ولاية الحبشة » أن المكتبات التركية تحتوي على مجموعة طيبة من الوثائق التركية التي تتعرض لمناطق مصوع وسواكن ، وآمل أن تتجه أنظار الباحثين لهذا المصدر الهام

وخاصة عن سلطنة الفور في القرن التاسع عشر . وقد نشر البروفسير أورهونلو عددا من الوثائق التركية في كتابه « ولاية الحبشة » (٣٧) .

الباب الثالث

مملكتي دارفور والمسبعات

لا تختلف نوعية المصادر التي تؤرخ لمملكتي الفور والمسبعات عما استعرضناه من مصادر المنطقة النيلية الا أنها أقل وفرة كما أنها باستثناء القليل منها لا تقدم معلومات مفصلة .

المصادر المحلية :

ليس في كل ما كتب عن هذا الاقليم ما يضاهي مخطوطة كاتب الشونة او طبقات ود ضيف الله ، ولكن الروايات الشفوية المتداولة عند المواطنين والتي دونت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تمثل مصدرا هاما لا يمكن اغفاله . فقد جمع ماكمايكل شذرا من هذه الروايات في كتابيه « تاريخ العرب في السودان » و « قبائل شمال وأواسط كردفان » اللذين أسلفنا الاشارة اليهما (٣٨) . كما أن مجلة السودان بها رسائل ومدونات تحوي العديد من المقالات التي تعتمد أصلا على قدر كبير من الروايات الشفوية ـ مثل مقالات ج.ا. أركل عن تاريخ الفور . وقد أثرى السيد أركل المكتبة السودانية بحفظه لأصول كثيرة من هذه الأخبار بالصورة التي جمعها فيها ابان اقامته الطويلة في دارفور بين عامي ٢١ ـ ١٩٢٦ ثم بين عامي ٣٢ ـ ١٩٣٧ . وتوجد هذه المذكرات التي تشكل معلومات ثرة عن مملكة الفونج في مكتبة معهد الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن . ومن هذه الوثائق قانون دالي الذي يعتبر أساس التشريع والعرف القانوني عند سلاطين الفور ، كما تشمل وريقات عن أنساب القبائل واشارات مختصرة عن تاريخ بعض القبائل ، وقوائم بأسماء السلاطين . وتحتوي أيضا على ما جمعه أركل من أفواه الرواة أثناء تجواله في تلك المديرية (٣٩) . وتشكل أوراق أركل مصدرا رئيسيا لتاريخ سلطنة الفور .

وفي العهد التركي المصري (١٨٧٤ ـ ١٨٨٥) جمع سلاطين Slatin باشا مادة مشابهة ونشرها في كتابه « النار والسيف » (٤٠) . كما أفرد

نعوم شقير ، وكان يعمل في المخابرات المصرية ، حيزا كبيرا من كتابه الهام « تاريخ السودان » لنفس الغرض (٤١) ، وقد جمع كثيرا من معلوماته هذه من الشيخ محمد الطيب امام مسجد السلطان علي دينار . ونجد في مؤلفات المؤرخ السوداني محمد عبد الرحيم صدى للروايات الشفوية في كتاباته عن تاريخ الفور والمسبعات (٤٢) .

عقود تمليك الأرض :

تمثل هذه مصدرا من الوثائق هاما لتاريخ سلطنة الفور نسبة لقلة المدونات المحلية وخلافا لما كان يظن فقد عثر على قدر كبير من هذه الوثائق السلطانية . وربما كان أول من نبه اليها المؤلفان جوزيف وماري جوس تبيانا عندما صورا خمس عشرة وثيقة ، في دور الواقعة شمال دارفور ، عام ١٩٦٥ . وفي منتصف عام ١٩٧٠ اكتشف الدكتور ركس شين أوفاهي مزيدا من عقود التمليك هذه في مدينة الفاشر وضواحيها . وفي رحلات أخرى مماثلة تم الحصول على مزيد من الوثائق تشمل وثائق التمليك وغيرها من الوثائق مثل سندات بيع الرقيق ورخص تجارية وطلب اعفاء من الضرائب . وترجع أقدم هذه الوثائق الى عهد السلطان أبي القاسم (١٧٦٤ ــ ١٧٦٨) الا أن معظمها يعود الى عهد السلطان علي دينار الذي قتل في سنة ١٩١٦ . وقد نشر الدكتور أوفاهي بمعاونة الدكتور عبد الغفار محمد أحمد جزءا من هذه الوثائق في كتابين بعنوان « وثائق من الفور » (٤٣) . ومازال هناك مجال لجمع وثائق أكثر اذا ما ضوعف الجهد ، وهذا التنقيب يتطلب السرعة اذ أن الزمن ليس في صالح الباحثين بسبب الآفات مثل الارضة وربما الحرائق التي تتلف الكثير من هذه الوثائق . كما أن من يستطيعون شرح ما غمض من محتويات هذه الوثائق يتناقص عددهم عاما بعد عام (٤٤) .

وأخيرا قام الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم بدراسة كل ما اكتشف من هذه الوثائق في بحث مماثل لكتابه « الفونج والأرض » درس فيه تسعا وعشرين وثيقة بعد أن نقل نصوصها نقلا حرفيا . ومن المواضيع التي درسها في كتابه « الفور والأرض » ، من خلال هذه الوثائق ، وضع المزارع وسياسة السلاطين نحو الأرض والعطايا والملكية للحاكورة (وجمعها حواكير) أي استعمال الأرض دون أن يكون للمزارع حق الملكية المطلقة عليها (٤٥) .

آداب الرحلات :

زار هذا الاقليم رحالون ثلاثة هم التونسي وبراون وناختيقال . كما

تشمل كتابات الرحالين الذين زاروا الأقاليم المجاورة أو كتبوا عنها في ذلك الوقت بعض الأخبار عن اقليم الفور ·

أما محمد بن عمر التونسي (١٧٨٩ ـ ١٨٥٧) فينتمي الى أسرة تردد بعض أفرادها على سنار والفاشر ووادي بقصد التجارة ، وتدريس العلوم الدينية · وفي عام ١٨٠٣ قدم التونسي الى الفاشر باحثا عن والده ، ومكث هناك قرابة ثماني سنوات ، كما زار مملكة واداي وفي أثناء اقامته في دارفور تجول في أقاليمها المختلفة وألم بأحوالها السياسية والاجتماعية والتاريخية · وقد مكنه صفاء ذهنه وقوة ملاحظته من اختزان كثير من المعلومات عن تلك البلاد ، وفي عام ١٨٣٢ سجل التونسي هذه المادة بتشجيع من المستشرق الفرنسي بيرون ، ونشرت في طبعة على الحجر باسم « تشحيذ الأذهان بسير بلاد العرب والسودان » (٤٦) ، ونشرت في طبعة محققة عام ١٩٦٥ (٤٧) · وفي هذا الكتاب خلف لنا التونسي أوفى وصف عن هذا الاقليم · ومع أن هذا المؤلف يعتبر امتدادا طبيعيا لمؤلفات الرحالة العرب الذين زاروا السودان مثل ابن سليم الأسواني وابن بطوطة في محتواها ـ الا أنه أول مؤلف عربي يتحدث عن بلاد السودان الشرقي منذ القرن الخامس عشر ، وربما كان تشحيذ الأذهان (ووصفه عن واداي) آخر مساهمة عربية جادة كتبت عن تجربة رحلة مباشرة لأواسط القارة الافريقية ·

وترسم خطى التونسي ، رحالة تونسي آخر ، يسمى زين العابدين ؛ ففي نحو عام ١٨١٨ ذهب الى السودان حيث مكث فيه عشرة أعوام زار خلالها سنار وكردفان ودارفور وواداى ، واشتغل بالتدريس · وقد ضاع الأصل العربي لمذكراته عن تلك الرحلة الا أن ترجمة تركية لها قد نشرت في عام ١٨٤٦ ، وأخرى المانية طبعت بعد عام واحد (٤٨) · وقيل أن الكتاب يضيف بعض المعلومات على ما أورده التونسي عن دارفور الا أنه أقل قيمة من كتاب تشحيذ الأذهان ·

وفي عام ١٧٩٣ استطاع الرحالة الانجليزي و·ق· براون أن يصل الى دارفور حيث مكث فيها حتى عام ١٧٩٦ ، وتمكن خلالها رغم « الحجر » المفروض عليه من جمع معلومات غنية عن تلك البلاد خاصة في الشئون التجارية ، وقد ضمنت في كتابه « أسفار في أفريقيا » (٤٩) · وزار الرحالة الألماني جوستاف ناختيفال الفاشر ، سنة ١٧٧٤ ، بعد رحلة طويلة زار خلالها أقاليم تيبستي ، وكانم وواداي · ومكث في الفاشر نحو ستة أشهر · جمع خلالها كثيرا من الأخبار الثرة عن وضع تلك البلاد ، وتاريخها السياسي والاجتماعي وقدم وصفا تفصيليا لبعض العادات وكان مصدره في هذا كله ،

الى جانب مشاهداته بعض الرواة . ونشر الجزء المتعلق بواداي ودارفور بالألمانية في الجزء الثالث وفي ترجمة بالانجليزية في الجزء الرابع (٥٠) .

ويجد الباحث كثيرا من الاشارات القيمة في معظم ما كتب عن الممالك الاسلامية الشرقية المعاصرة للمملكتي الفور والمسبعات . كما يجد الباحث أيضا بعض الاشارات المفيدة في دراسات هنري بارث مثل رحلات واكتشافات في أفريقيا الشمالية والوسطى (٥١) .

ولعل من أهم الكتب المعاصرة كتاب مصر والنوبة للمؤلفين دي كادلافين ودبروفيري (٥٢) خاصة الجزء المتعلق باقليم كردفان (سلطنة المسبعات) . ويؤرخ هذا الجزء لتاريخ كردفان من القرن الخامس عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر . وقد زار هذان الكاتبان مصر ثم تابعا النيل حتى مدينة دنقلا ثم جبل البركل . وقد اعتمدا في كتابة هذا الجزء على مستشرق فرنسي ، كان يعيش في مصر ومنها تردد على السودان مرات كما زار مدينة الأبيض . ويبدو أنه قد حصل على مخطوطة في احدى زياراته تلك من أحد أفراد أسرة المسبعات (٥٣) . وهذه الصفحات خير ما وصلنا عن تاريخ سلطنة المسبعات .

وثائق سجلات المحاكم في القاهرة :

وقد اكتشف الدكتور ت. ولتز عند دراسته للتجارة بين مصر وبلاد السودان ١٧٠٠ ـ ١٨٢٠ ـ وثائق هامة في بعض المحاكم الشرعية في القاهرة ، وتوجد معظم هذه الوثائق في مصلحة الشهر العقاري . وتحتوي على مجموعة من الدفاتر يرجع تاريخها الى سنة ١٥٢٧ . وتشمل هذه السجلات أسماء كثيرة عن التجار الذين كانوا يتاجرون مع أجزاء متفرقة من القارة الافريقية . وذكر الدكتور ولتز أنه وجد فيها مادة غزيرة كانت ذات فائدة عظمى في دراسته هذه . وبين أن أصول هذه الوثائق توجد في محكمة القسمة العربية ومحكمة القسمة العسكرية ومحكمة الباب العالي ، والمحكمة الصالحية النجمية . كما تشمل هذه الوثائق على عقود الأوقاف ووثائق البيع وايصالات التسليم وعقود التوكيل وغيرها من الوثائق ذات الصبغة التجارية ولا شك أن مثل هذه الوثائق قد تفتح آفاقا جديدة في البحث العلمي (٥٥) .

الباب الرابع

التراث الشفوي وأهمية جمعه

ذكرت في أكثر من مناسبة في هذه الدراسة أن بعض المؤلفات كمخطوطة « كاتب الشونة » كانت في أصلها مجموعة من الأخبار التاريخية المتداولة عند الناس ثم جمعت ودونت في كتب . وهذا القول ينطبق على كثير من تلك المؤلفات بل أن معظم ما جمعه الرحالة ينبع من هذا الرافد . وفي أول هذا القرن كان كثير من الاداريين البريطانيين يملأون أوقات فراغهم بتوجيه أسئلة للمواطنين عن بعض الظواهر الاجتماعية أو الروايات التاريخية المتداولة . وأصبحت كل هذه الأخبار تمثل ذخيرة تاريخية هامة يهتدي بها الكتاب عند دراستهم لتاريخ هذه البلاد . وفي وقتنا هذا بدأت شعبة أبحاث السودان (ومن بعدها معهد الدراسات الافريقية والآسيوية) بجامعة الخرطوم بجمع الروايات الشفوية المتداولة بين سكان منطقة معينة وخير مثال لذلك « تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية » ، « والتراث الشعبي لقبيلة المسبعات » . ومازال هناك مجال واسع لكل الباحثين في هذا المضمار . فقد جمع كاتب هذه السطور بعض الأخبار الهامة عن تاريخ سلطنة الفونج ، في أعالي النيل الأزرق ، بعد توجيه أسئلة محددة ، وفق منهج علمي ارتضاه لنفسه ، وكانت النتيجة مشجعة جدا . هذا لا يعني أن نترك الباب مفتوحا لكل شخص دون تدريب علمي على جمع مثل هذه المادة . فاذا لم نفعل ذلك فسيتعذر علينا ملء كثير من الثغرات التي أهملها المعاصرون ممن كتبوا عن تاريخ هذه البلاد . وأرجو ان أنبه أن منهج جمع هذه الروايات الشفوية ، في مجتمع ظل بعض أهله يجيدون القراءة والكتابة منذ أمد بعيد يختلف كثيرا عن الضوابط التي وضعها البروفسير جان فانسينا في منهجه الرائد ، ووصفها في كتابه « التقاليد الشفوية » (٥٦) .

ومهما يكن من أمر المنهج الذي نتبعه في جمع الروايات الشفوية فيبدو لي أنه مع قلة المصادر المكتوبة لابد من الاسراع بجمع هذه الروايات قبل موت حفظتها ، في وقت أخذ الاعتماد على الكلمة المكتوبة يزداد يوما بعد يوم . وأرى أن موضوع الروايات الشفوية كمصدر من مصادر التاريخ ، يستحق العناية والدراسة من الباحثين . ولابد من ربط زيادة حصيلتنا من الروايات الشفوية بالبحوث المنتظم داخل السودان وخارجه عن الوثائق والمؤلفات التي مازالت في طي الكتمان . وقد برهنت التجربة أن مثل هذه المحاولات قل أن تفشل .

وختاما اسمحوا لي أن أنهي هذه الدراسة بقائمة ببعض الدراسات الحديثة التي تحتوي في ثبت مصادرها على قدر من عناوين كل ما كتب عن بلاد السودان الشرقي ، خاصة في الدوريات ــ التي تشكل في يومنا هــذا مصدرا لا غنى عنه لكل باحث (٥٧) .

المصادر والهوامش

1. O.G.S. Crawford : The Funj Kingdom of Sennar, Gloucester.

2. Yusuf Fadl Hasan, The Arabs & the Sudan, Khartoum 1974 3rd edition.

3. R. L. Hill A bibliography of the Anglo-Egyptian Sudan. from the earliest times to 1937, London 1939.

٤ ــ محمد النور بن ضيف الله ، كتاب الطبقات في خصوص الأوليـاء والصالحين والعلماء والشعراء ، تحقيق يوسف فضل حسـن ، الخرطوم ، ١٩٧٤ .

٥ ــ مصطفى محمد مسعد ، المكتبة السودانية العربية مجموعة الوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

6. Abd El-Rahman El Nasri, A Bibliography of the Sudan 1938 - 1958. London, 1963.

7. R.S. O'Fahey : The Growth and Development of the Keira Sultanate of Darfur, Ph. D London, 1972.

8. J.L. Spaulding, Kings of Sun and Shadow : A History of the Abdallab Provinces .... 1500 - 1800 A D Ph. D

٩ ــ قاسم عثمان نور ، مصادر الدراسات السـودانية ، الخرطوم ، ١٩٧٣ .

١٠ ــ يوسف أسعد داغر ، الاصول العربية للدراسـات السودانية ، بيروت ، ١٩٦٨ .

١ ـ احمد بن علي المقريزي ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، تحقيق فييت ـ القاهرة ، ١٩٢٢ ، ج٣ ، ٢٥٢ ـ ٢٧٨ .

٢ ـ واورد ابن عبد السلام فصلا في كتابه الفيض المديد في اخبار النيل السعيد ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٢٩ تاريخ ، وابن اياس في نشق الأزهار في عجائب الأقطار ، مخطوطة ـ المتحف البريطاني ـ لندن .

٣ ـ مصطفى محمد مسعد ، المكتبة السودانية العربية ، مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٤ ـ نشر هذا الكتاب في وارسو ببولندا ، سنة ١٩٧٨ ، ولكني لم ار نسخة منه بعد .

5. Yusuf Fadl Hasan, The Arabs and the Sudan, Edinburgh 1967, PP. 182 - 213, 258 - 264.

٦ ـ يرجى ان يعثر الباحث على بعض المصادر في مكتبات مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة ، واليمن . فهذه المكتبات لم تفحص محتوياتها بعد ، فحصا دقيقا ـ ويامل المؤلف ان يرجع الى مكتبات الحجاز في هذا الشان .

٧ ـ الطبقات لابن ضيف الله ، تحقيق وتعليق وتقديم يوسف فضل حسن ، الطبعة الاولى ١٩٧٠ ، الطبعة الثانية ١٩٧٤ .

8. A. E. D. Penn, "Traditional stories of the Abdullab Tribe" "Sudan Notes and Records" XVII, (1934) 58 - 82.

٩ ـ احمد عبد الرحيم نصر ، تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية ـ شعبة ابحاث السودان ، الخرطوم ، ١٩٦٩ .

10. A. J. Arkell, "Funj Origins" Sudan Notes and Records" X V (1932) P. 9, and 248 - 50.

١٣ ـ محمد ابراهيم ابو سليم : الفونج والارض : وثائق تمليك : شعبة ابحاث السودان ، الخرطوم ١٩٦٧ ، انظر ايضا يوسف فضل حسن ، دراسات في تاريخ السودان ص ١٢٠ ـ ١٢٢ والمصادر المذكورة هناك .

14. E. N. "David Reubeni", Jewish, Trevellers, London, 1930 251 - 328; S. Hellilson, David, Reubeni, an early visitor to Sennar, Sudan Notes and Records, XVI, 1933, 55 - 66.

15. Evliya Celebi, Seyahamesi Misr Sudan, Habes 1672 - 1680 Istanbul, 1938.

16. Maria Tereza Pette Suma, "Il viaggio in Sudan di, Evliya Celebi 1671 - 1672" Annali Del Istitute Universtario orientale, (Naples) N. S. XIV, II, 1964.

35. F. Alvarez, The Prester John of the Indies .... ed C. F. Beckingham and G. W. B. Huulingford, Hakluyt Society No. CXV, Cambridge, 1961. Merid Wolde Aregay, and Sergew Hable Selassie, "Sudanese Ethiopian Relations before the Nineteenth Century" in Sudan in Africa, ed Yusuf Fadl Hasan, Khartoum, 1971.

36. J. M. Wansleben, The Present state of Egypt, or a new relation of a Late Voyage into that Kingdom, London 1678, J. M. Vansleb, Nouvelle relation en forme de Journal d'un voyage fait en Egypte .... Paris, 1677.

37. Genciz Orhonlu, Habes Eyaleti, Istanbul, 1974.

٣٨ ـ انظر صفحة ٧ اعـلاه .

٣٩ ـ وقد وصف اوفاهي مجموعة اوراق اركل في دراسة تفصيلية بعنوان :
R. S. O'Fahey, "The Sudan of the Re V. A. J. Arkell, Sudan notes and Records, LV (1974) 172 - 74.

40. R. Von Slatin, Fire and Sword in the Sudan, London, 1896.

٤١ ـ تاريخ السـودان القـديم والحديث وجغرافيته ، القـاهرة ، ١٩٠٢ ، ج ٩/١١١ ـ ١٤٨ .

٤٢ ـ ابطال السودان ، مخطوطة تعدها للنشر دار الوثائق المركزية بالتعاون مع معهد الدراسات الافريقية والاسيوية و « مملكة المسبعات » مجلة ام درمان ، العـدد الثاني ، (٣٠ سبتمبر ١٩٣٦) . ٧٩ ـ ٨١ .

43. Rex S. O'Fahey and Abdul-Ghaffar Mohammed Ahmed, Documents from Dar fur, Fascilo No. 1 - 2.

44. R. S. O'Fahey A plea for the collection and study of non literacy public & Private Records,. Bulletin of Information Fontes Historic Africane, Accra, 1976. 6 - 12 and 26 - 30.

٤٥ ـ محمد ابراهيم ابو سليم ، الفور والارض وثائق تمليك ، الخرطوم ١٩٧٥ .

٤٦ ـ باريس ١٨٥٠ ، وترجمها بيرون الى الفرنسية بعنوان :
Voyage au Darfur par le Cheykh Mohamed Ebn Omer El Tonnsy, Paris.

١٧ ـ لعل البروفسير هل يشير الى المخطوطة المحفوظة بمكتبة السليمانية في استنبول ، وقد رايتها وهي بحروف عربية واضحة .

18. O. G. B. - Grawford, The Funj Kingdom of Sennar, G; picester, 1951, PP 196 - 236.

19. The Franciscan Travellers in Nubia and Sennar between 1680 - 1720.

20. C.J. Poncet, Avoyage to Ethiopia made in the years 1698, 1699, 1700 describing particulary that famous Empire as also the Kingdom of Dongola, Sennar, London. 1709.

21. The Krump, Hoher und Fruchtbarer Palm Baum ...., Angsburg, 1710.

22. Ciacomo D'ALBANO, Hisoria Della Messione Francescana in alto Egitto Fungi-Etiopia, 1686 - 1720, ed by G Giamberardini, Cairo, 1961, Viraggiatori Franciscani attraverso la Nubia dal 1698 al 1710.

23. Etiopia Francesca, ne Documenti der secoli XVII E XVIII, ed T. S. di Hetole, 1638, 16 - 43, Quaracchi, Vol 1. Ethiopia Francesca ...., ed by G.M. Montano, Quaracchi, 1948 Vol II.

24. James Bruce, Travels to Discover the Sources of the Nile, 1804 - 5, 7 volumes, Edinburgh, 2nd edition.

25. Alexander Murray, Account of the life and writings of James Bruce Kinnaird, Edinburgh, 1808.

26. J. Bruce, Travels to discover the sources of the Nile .., Selected and edited by G.F. Beckingham, Edinburgh, 1964, 16.

27. J. L. Burckhardt, Travels in Nubia, London, 1822.

28. O.G.S. Crawford, The Funj Kingdom, of Sennar Gloucester, 1951.

29. R.S. O'Fahey and J.L. Spaulding, Kingdoms of the Sudan, London, 1974.

٣٠ ـ محمد النور بن ضيف الله ، كتاب الطبقات ، تحقيق يوسف فضل حسن ، ١٩٧٤ .

31. F. Cailliaud, Voyage a Meroe au Fleuve blanc .... fait dans les annees 1819, 1820, 1821 et 1822 4 Vols, Paris 1826.

32. L. de Bellefonde,.. Journal D'un Voyage a Meroe dans les annes 1821 et 1822 - ed M. Shinne, Khartoum 1954.

33. E. de Cadalvene, J. de Breuvery, Egypte at la Nubie, Paris, 1839 Vol 1.

34. O. G. S. Crawford, ed., Ethiopian Itineraries circa, 1400 - 1524 .... Hakluyt Society, 2nd series, No. cix Cambridge, 1953.

٤٧ ـ حققه الأستاذان خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

48. Zein El abdin, Das Bush des Sudan, translated by G. Rosen, Leipzig, 1847.

49. G. W. Browne, Travels in Africa, Egypt, and Syria for the years : 1792 - 1796, London, 1799.

٥٠ ـ (وبالانجليزية) :

G. Nachtigal, Sahara und Sudan, Leipzig, 1967, III, Sahara and Sudan; Wadi and Darfur, 1971, translated by A. G. B. Fisher and J. J. Fisher, with R. S. O'Fahey.

51. H. Barth, Travels and Discoveries in Northern and Central Africa 5 Vols, London, 1857.

52. E. de Cadalvene and J. de Breuvery L'Egypte te Nubie, Vol 11, Paris, 1838.

53. R. S. O'Fahey, "Kordofan in the eighteenth Century" Sudan Notes and Records, LIV (1973), 32 - 42.

٥٥ ـ انظر المصدر السابق صفحات : XII - XVI

56. Jan Vansina, Oral Tradition, A study in Historical Methodology, London, 1965.

٥٧ ـ قبل فترة بدا كاتب هذه الدراسة في اعداد ببلوغرافية مفصلة عن تاريخ الممالك الاسلامية في سودان وادي النيل ٠